

نهضة الشرق (١)

أيها السادة والسيدات

وجل قضى العقدين الاخيرين من اعوام حياتي يعبر عن افكاره وارائه بقلبه دون لسانه ولم يألف الوقوف على المنابر ولا اعتماد مخاطبة الجماهير يندى الى الخطابة في هذا المحفل الحافل بنخبة اهل الفضل والعلم من سكان هذه المدينة العامرة والوقوف على منبر انتدتم ان تسموا منة مشاهير الخطباء قبلي الدعوة ويقدم على الخطابة في قطر اجري الله الفعاحة على السنة امله وانزل البلاغة على قلوبهم — ان رجلاً كهذا لجدير بان ينعت بالمرأة لا ان يُتهم بها فقط وخلق بان يقال له اعط القوس لباريها واترك الخطابة لاربابها ويجيدنها

ولكن عذري على هذه المرأة امور ثلاثة — شوقى الى مشاركة هذه الجمعية الشهيرة بفعاها ومازها والسابقة الى تعضيد مبدأ الاتحاد على فعل الخير وتوثيق عرى الالفة بين العناصر . وتوقى الى زيارة طنطا والاجتماع بالخاصة من فضلائها وادائها وهي المدينة الاولى التي حطت فيها رحالي لما هجرت الى مصر وطني الثاني فنزلت فيها سهلاً ولقيت فيها اهلاً . وعجزى عن اقتناع حضرات رئيس هذه الجمعية وسكرتيرها الفاضلين بانها اخطأ هذه المرة الاختيار وسقط على غير الخير

فاذا قصرت في المهمة ولم يرقكم ما اقول وكيف اقول فتبكم عليها واما انا فلي نغر الاجتماع بكم وشرف الوقوف بينكم وهو فوز احفظه في تاريخ حياتي واذكره بالمسرة والابتهاج كما تذكرك ايام النيروز وتحفظ ايام الاعياد في قلوب الذين يسمعون بحماسها وبجاليها

ولقد هوّن عليّ الداعيان الكريمان المهمة التي ندباني لها واحجبت عنها فرقاً وهيبة في اول الامر فاقترحا ان يكون موضوع الحديث — وقد بسطت لكم عجزى عن الخطابة — موضوعاً اعده اقرب الامور الى نفسي والصقها بذهني وأعاقها بمواظني . فقد حلت نهضة الشرق والشرقيين الشغاف من قلبي وخبلت

(١) خطبة للمالم التاضل خليل بكيم ثابث رئيس تحرير المظم القاها في الاحتفال السنوي الخامس عشر لجمعية الاتحاد والاحسان السورية الممرية في طنطا في ٣٠ ابريل ١٩٢٢

لبي خديتها يحلو للنفس وذكرها تشرح الصدر وقد جعلها الشرقيون اليوم مناط
الآمال ومحط الرجال حقق الله الرجاء وهيجل عصر الصفاء والثناء ابن الله أكرم
مسؤول . فهذا موضوعي اليوم وبمضي ما أقوله فيه كتبه هذه اليد الخاطئة من
اشهر فا زادة الايام الا يائنا وما زادني الاسابيع الا ايماننا وإيقاننا
ايها السادة والسيدات

يحتاز الشرق الآن عصراً سيظل مذكوراً في عصور تاريخه ويقطع مرحلة لا
ابالغ اذا قلت انها من اعظم مراحلها شأنها وابداها مدى واعظها وقمها في
النفوس - نفوس اهلها ونفوس البعيدين عنه . فالذين يعيشون منا في هذا العصر
يشهدون حادثاً اجتماعياً عظيماً ويرون بميوضهم بقطة شعوب يرمتها وينظرون هذا
الجبار الذي نسيه الشرق والذي الطرح على الارض زمناً يديداً يقف الآن
ويتسطى ويشعر بما فيه من حيل وقوة فيستقبل بالامل بزوغ شمس الحياة التي
سظمت على بحياه وابرت بنورها اسارير وجهه ويسمو الى حيث الهراء الطلق
والنور البهي المتلألئ ذلك النور الذي ينبض من منبع الانوار والذي هو حق
طبيعي لجميع البشر

اجل لقد طال سبات الشرق حتى جاوز رقاد اهل الكهف وكأنما ليس بعد هذا
السنات بقطة حتى قيل انه سبات الموت ورقدة الفناء وحتى صار الشرق مضرب
الامثال في القنائة والخنوع والرضى باحكام القضاء والخنوع
اما اليوم فقد دبت الحياة وانتهى فصل الشتاء واقبل الربيع بنشاطه واعترت
افرام الشرق هزة فاخذت تردد اصداء الدعوات التي مدع بها دماء الاصلاح .
وتنادي حي على النهوض حي على الفلاح

ما مات الشرق ولن يموت ما دامت فيه هذه النفوس الخالدة التي تنفخ الخالق
فيها الحياة بصفاتها وبميزاتها . ما مات الشرق ولن يموت وفيه هذه القلوب الخافقة
التي جعلها الله قوارير الضمائر وخزائن الالهام . ما مات الشرق ولن يموت وفيه
اليوم قلوب تنبض بحب العمل . وافئدة تحفق بعوامل الامل . وصدور تعجرت
وطنية . ونفوس اتعدت بنا الرحمة القومية . وشبان ملء انواهم التضاني في خدمة
الوطن وشيوخ تكلمت رؤوسهم بالشيب ووعت قلوبهم الحكمة والاختيار . وكهول
يقدمون مصلحة الوطن على كل اعتبار

ان الشرق حي لا يموت ولكن لكل جراد كبرة ولكل صارم نبوة فاذا
نام الشرق فقد اذق من الرقاد وسيواصل العمل بالجهد والنشاط الى ان يفوز بمناه
ويبلغ غاية مرتجاه

واذا تفاخرت الامم باعجادها فاخرها الشرق بكل مجد من هذه الاعجاد فقال
صدقا ونطق حقا . علوم الشرق وصناعات الشرق ودول الشرق وماثر الشرق
ورسل الشرق واديان الشرق التي يدين بها العالم المنعمين . هذا هو الشرق مهد
الحضارة ومهبط الرحي ومطلع نور حق اليقين . هذا هو الشرق الذي نهواه وهذا
هو الشرق الذي اصطفاه رب العالمين . فاذا تفاخرت الاقوام فاخرها الشرق وهو
مرفوع الرأس بلسان شاعره الكريم

قومي استولوا على النهر فني ومشوا فوق رؤوس الحقب
على انتم ايها السادة والسيدات فاني ان نعيش على ذكر الماضي شأن بعض
الوارثين المدمين ولكننا تمثله ليكون لنا نصب عيوننا مطمح نرؤ اليه بايثارنا
وغرض نسمى للوصول اليه باقدامنا واقدامنا فاذا ذكرنا اعجاد اسلافنا فلا تفعل
اكتفاء بما كان لهم من عز ومجد بل ليكون لنا من ذلك دافع يدفعنا الى العمل فلا
يقال فينا « نعم الجدود ولكن بش ما ولدوا » بل لنقول

نبني كما كانت اوائنا تبني وتفعل كالذي فعلوا

اجل نبني وسنبني ونحن الآن بانون بما نعد له انفسنا واولادنا من بعدنا
ليحملوا عبء هذه النهضة التي تبشر بحسن المآل فقد ردد الشرق صوت الدعوة
الى النهوض فأتق القاضي والداني وشعر الجميع ان الليل الداجي مضى وانقضى
وان الفصح البهيج حل وقد طلعت شمس الآمال على ربوع الشرق الزاهرة فكانت
هذه الضجة بعد السكون وهذه الحركة بعد الرقاد وسقطت القشور عن الميون
ووضحت الغاية وظهر السبيل فتش في الناس بين سابق ولاحق الى حيث يبشرون
المنى ويدركون الغاية

يقولون ان نهضة الشرق نهضة معطمة وانها تار شيت ولا تلبث ان تمخذ
وظفرة قصيرة العمر واماني طارت على اجنحة الخيال فلا تلبث ان تستقر على
الارض يوم تنب شعوبه ويحل بها الاعياء . اما الذين درسوا لخلق الامم وطبائع

الشموب فيرون غير هذا وهم يعلمون ان هذه النهضة من ملازمات الحياة حيث تكون الحياة تكون

ان نهضة الشرق نهضة صحيحة سائرة بحكم نوايس الاجتماع وال عمران فاذا استعين فيها بمقوماتها وروعت فيها هذه النوايس فالنجاح مكفول لها باذن الله ولكل نهضة وسائل تكفل لها النجاح ولكل خطوة من خطوات الشموب نوازم تضمن لها الفلاح . ولنا في ما ترك السلف الصالح ما يعين على ادراك المنى وتحقيق الآمال من نبات النصف به بناء الاهرام . وعزة تحلى بها الاكامرة اصحاب الايوان . ومضارح للامويين وماثر للعباسيين . وهكذا في منحدر القرون والسنين الى اليوم الذي نبغ فيه محمد علي فاعاد الى الشرق نشاطه وجدد لمصر شياها فكان رأس دعاء النهضة الشرقية وكانت مصر مرشدة الشرق في التاريخ الحديث كما كانت محلة العالم في تاريخها القديم

والحياة في المخلوقات تكون في داخلها في قلبها ودماغها . فليست الحياة ثوباً يلبس ويخلع . وكذلك الحياة القرمية لا تدب الا من داخل اجسام الجمادات وهي قنية نحية لا تباع ولا تمار . ولا تصان الحياة الا اذا بذل في صونها ما يضارع قدرها ويتكافأ مع رفيع مقامها في العيون

فقل لمن يريد البقاء من الشموب عليكم بالثبات والعمل والاتحاد والاخلاص والتفاني في خدمة الوطن فلها خير ما تتوسل به الامم في جهادها . وخير ما تخلف بعدها لاولادها واحفادها

ان العالم ينظر اليوم الى نهضة الشرق بعين المعجب وبعين المنتظر الرقيب وسيحكم العالم على هذه النهضة واصحابها بما يرى من نتائجها وفعال العائين بها في خدمة الاوطان وحمل عبء الحضارة . ولقد سكت الشامتون عنا ولكنهم لا يلبثون ان ينطقوا اذا شاهدوا من هذا الشرق تقاعداً او تمهقراً ورأوا عوامل التفريق تقسم عرى الوفاق ومعاول التقسيم والتخريب تعمل في قواعد الارتباط والاتحاد

نحن الشرقيين من ابناء هذا العصر امناء على ميراث انحدر الينا فاضاع بعضنا بعضة فعلينا ان نرد ما ضاع وان نعلم الوديمة لمن يأتي بعدنا كاملة سليمة فلا يتهم الخلف السلف بالهاون والقصور

وضع الطريق فليسلكه السالكون. فنقد كان اعظم ما هدد اركان صرح عمراننا
وبدال عزنا ذلاً ورفعتنا خضعتاً امور ثلاثة الجهد والانتقام وتقديم المصلحة
الشخصية على المصلحة العمومية والا فان الشرقيين لم يضيعوا ما فيهم من ثواب
العقل وصافي الطبع وقوة البدن وحب الارتقاء والنشاط في العمل فلما فشا فيهم
الجهل واطقت معايير العلم وضرب الانتقام اخطاباً في بلدانهم وتفرقت الكلمة
وقدمت الاعتبارات الشخصية على المصالح العمومية ضربت على الشرق المذلة وحق
به ما حق من الانحطاط الذي جعل ابناءه يتحسرون على فات من عز ومجد ورفعة
ومقام تحسراً يدا في اشعارهم واغانيتهم وحكاياتهم ونبياهم وحضراتهم وافراحهم
وحتى في ما معهم واتراحهم بما فيها من يأس ونسوة

كنا نقول عيس لنا الزمان ونحن ازمان وكنا نقول جارت علينا الايام ونحن
هذه الايام فبايدنا ضعنا اتصنا في صدورنا. ونحن الجائون على انفسنا بتوانينا
وقصورنا

اما اليوم فقد اخذ الماضي ينصرم بأحراره فابدل اليأس بالرجاء وصرفنا ترقع
بعد الشقاء الهناء فنحن في طريق الارتقاء سائرون فلا رجعة اليوم ولا فقهري
بعد الرحيل

لا يأس بعد اليوم فاليوم يرفع الشرق لواء العلم فيشره على ربوعه ويشرع مناهل
المرقان لابنائهم وينابته ليترقوا ما فيه شفاء النفوس وغذاء العقول استعداداً
للتزول الى حلبة المناظرة العالمية. واليوم يصدع دهمي الحق في انحاء الشرق يدعو
الى الاتحاد الاتحاد والتضافر التضافر والتعاون التعاون على الخير والفلاح والنجاح.
قوميات مستقلة كل قومية في بلادها تجمع الجميع رابطة الشرقية التي توثقها الجنسية
والمواطف والغيرة والتقاليد واللغات وسائر هذه العرى التي يمتاز بها الانسان
عن سائر المخلوقات

واليوم يعلم ابناء الشرق ان قوة الفرد تزداد بقوة الجماعة وان الجماعات من
الفرد وان القوة كل القوة اما هي بعقد العناصر وتقديم المصلحة العمومية على
المصلحة الشخصية

اقول هذا لا على سبيل الارشاد وابراد ما تجهلون ولكن على سبيل

الذكوري والفضير والتنويه بما صرنا اليه بفضل الله وجهاد المجاهدين
ايها الشرقيون ان لكم في ذمة الدهر حقاً فلا انتم بتاركيه ولا هو بضائع
وانتم وراهه طالبون فتدبروا بالصبر واستعينوا بالحكمة والرشد واختاروا طرق
الصواب والسداد وفوقكم ربُّ رباطكم وعناية تقيكم فلا تياسوا ولا تجزعوا
وايقنوا ان المستقبل لكم طال زمان حلوله او قصر وتقوا ان لكل امرئ ثمرة
مساءه وان كل من سار على الدرب وصل

وانتم تسيرون اليوم في طريق النجاح ولو انكم لا تشعرون وطريق النجاح
في جميع الاعمال طريق شاق وعزيم يكابد سالكه المشقة ولكن له من صدق
يقينه وحسن اعانه بصحة قصده ما يشد عزيمته ويضاعف همته. ومها طال عليكم
الطريق فاعلموا انكم بالقوى ما تشعرون ما دتم طاقدين النية على خدمة اوطانكم
واقرامكم بصدق الولاء والعزم الصحيح

وتزودوا لطريقكم هذا بالانحاد وكونوا اخواناً في السراء والضراء واعلموا ان
القرن العشرين سيكون عصر الشرق وتمضته. ومظهر يقظته. وجلالة قوته. واذكروا
ان اشد حلك الليل سواداً ما كان قبيل طلوع الفجر. والله يكلام بين عنابته
ويلهمكم السداد والرشاد في سيركم وجهادكم الى ان تكمل مساعيكم بالنجاح فيسترد
الشرق بفعالكم مجده الخالد ويستعيد مقامه الرفيع ويرفع رأسه ذاكراً لكم
تفانيكم في خدمة الاوطان وهيامكم بحبها وسعيكم لاعلاء شأن القومية الشرقية
التي ما التمت غير العدل ولا رامت غير الانصاف

ومن اتبع له منكم ان يشهد سطوع شمس الحرية والاستقلال ونشر لواء
القومية على ربوع الشرق العزيز فليستذكر الذين تقدموه وجهادوا في بلوغ ذلك
اليوم وليحفظ لهم جميل الذكر ولينتش لهم حسن الاتر بما يبدي من التفاني في
اعلاء منار البلاد ورفع مقامها واعداد الخلف لجل اعيانها في عصور التقدم والارتقاء
وردوا الشرق الى ما كان. مهد الحضارة ومطلع نور الحق واليقين

خليل ثابت